قواعد "تهذيب الخطاب" وقوانين "الخطاب المثالي" دراسة تطبيقية على حوار شخصيات الخطاب القرآنيّ

الدكتورة بان أمين الربيعيَ
جامعة الكوفة ـ كلية التربية المختلطة
alamulhudaot@gmail.com

The Rules of "Polite Speech" and the Rules of "Perfect discourse" An Applied Study on the Dialogue of Personalities in the Qur'anic Discourse

Dr. Ban Ameen
Faculty of Education - University of Kufa

الملخص:-

إذا الخطاب(discourse) بوجه عام هو: رسالةٌ ذاتُ محتوى تواصليّ موجّه (مقصود) يقصد به التأثير في المخاطب، فإنّ القصد يعدّ أساس هذه العملية التواصلية؛ لأنّه لا وجود لأي تواصل بالعلامات اللغويّة، أو غيرها من دون وجود قصديّة وراء فعل التواصل، ومن دون وجود ترتيب لتلك العلامات[١] على أنّ إتقان فنّ الكلام أمرٌ متفاوتٌ بين البشر، فمنهم من يتقنه فيُوصَف حواره حينئذٍ بالناجح، ومنهم مَن لا يتقنه[٢]، الأمر الذي جعل المهتمين بالجانب التداوليّ للكلام، وتحليل الخطاب، يولون هذا الموضوع أهميّة خاصّة، باحثين عن الوسائل التي تجعل خطابَ متكلمٍ ما مثاليًا، وناجحًا من حيث تحقيقُ الغاية، والمعوقاتِ التي تجعل خطابًا آخر فاشلًا...

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، قواعد تهذيب الخطاب، قوانين الخطاب المثالي، الخطاب القرآني، قاعدة الكم، قاعدة النوع، قاعدة الكيف.

Abstract:-

If a discourse in general is: a message with a directed communicative content intended to influence the addressee, then the intent is the basis of this communicative process. This is due to the fact that there is no communication with linguistic signs or other signs without the presence of intentionality behind the act of communication and without an arrangement of these signs. The mastering of the art of speech is uneven between humans, some of who master it and their dialogue is described as successful, and some do not master it. This has made those interested in the deliberative aspect of speech and discourse analysis, give this topic special importance, looking for ways to make the speech of a speaker as perfect and successful in terms of achieving a goal, and there are the obstacles that make another speech unsuccessful... After all, an ideal speech is the discourse that is governed by laws that control its effectiveness and guarantee its impact on the other. Although these laws have recently appeared in recent studies as foundations to be adopted In analyzing the discourse, however, we do not fail to refer to it in our ancient inheritance. The most prominent document in which these laws are manifested is the message of "The Right of the Tongue- Hak Al-Lisan" contained in the Collection of the Rights by Imam Ali Bin Al Hussein Zain Al Abidin (died 95 A.H.): "As for the right of the tongue, it is to honor it from being unfaithful, accustom it to goodness, force it to etiquette, and restrain it except for the place of need and benefit for religion and this world, and to absolve it of the ugly and of little benefit curiosity, the harm of which is not secured with its low return..." . Recent studies have given the aspect of use of language (speech) a great interest. In-depth studies followed concerning the analysis of discourse and pronunciation issues in order to set the conditions for practicing the conversational process that increases the opportunity for the effectiveness of the discourse, and the degree of its impact on the recipients. Based on this, the researchers have formulated a set of principles and laws that refine the discourse, or control it, and make it an ideal and effective discourse. In this research paper, the research seeks to reveal examples of The polite and ideal discourse, as well as its violations, taking the dialogue of the personalities of the Qur'anic discourse as an application through which the idealism of the discourse is demonstrated among some successful personalities in the dialogue, as well as the obstacles that caused the failure of other characters in the communication process, relying primarily on the language of dialogue in the verbal context to clarify it.

Keywords: the Noble Qur'an, rules of discourse refinement, ideal discourse laws, Quranic discourse, quantitative rule, type rule, quality rule.

المقدمة:

الخطاب المثاليّ، هو الخطاب الذي تحكمه قوانينُ تضبط فعاليته، وتضمنُ تأثيرَه في الآخر، ومع أنّ هذه القوانين قد ظهرت مؤخرًا في الدراسات الحديثة بوصفها أسسًا تُعتمد في تحليل الخطاب، إلا أننا لا نعدم الإشارة إليها في موروثنا القديم، وأبرز وثيقة تتجلى فيها تلك القوانين رسالة ((حق اللسان)) الواردة من ضمن مجموعة رسالة الحقوق للإمام علي بن الحسين زين العابدين(ت٩٥هـ): ((وأمّا حقّ اللّسان فإكرامُه عن الخنى، وتعويدُه على الخير، وحملُه على الأدب، وإجمامُه إلا لموضع الحاجة والمنفعة للدين والدنيا، وإعفاؤه عن الفضول الشُنعة القليلة الفائدة التي لا يؤمن ضررها مع قلّة عائدتها...))[٣]، فهو "عليه السلام" يجمل قوانين الخطاب، ومبدأ التأدب في هذه العبارات القصيرة الصياغة والمكثفة معنًى، فالمتأمل في هذه الرسالة يجدها تشتمل على القوانين كلّها- صراحةً وضمنًا- التي ظهرت مؤخرًا عند المحدثين، بل يفوقها، ومع ذلك فقد أولت الدراسات الحديثة في الآونة الأخيرة الجانب الاستعمالي للغة (الكلام) اهتماما بالغًا، وتوالت دراساتٌ معمّقة في تحليل الخطاب، وقضايا التلفّظ؛ وذلك لضبط شروط ممارسة العمليّة التخاطبيّة التي تزيد من فرصة نجاعة الخطاب، ودرجة تأثيره في المتلقين، وتأسيسًا عليه صاغ الباحثون جملةً من المبادئ، والقوانين التي تهذّب الخطاب، أو تضبطه، وتجعله خطابًا مثاليًا فعّالًا، وفي هذه الورقة البحثية يسعى البحث إلى الكشف عن نماذج من الخطاب المهذّب والمثالي، فضلًا عن خروقاته متخذًا من حوار شخصيات الخطاب القرآني ميدانًا تطبيقًا تتجلى من خلاله مثاليّة الخطاب عند بعض الشخصيات الناجحة في الحوار، فضلًا عن المعوقات التي سببت فشل شخصيات أُخَر في عملية التواصل، معتمدين بالدرجة الأساس في ذلك على لغة الحوار في السياق التلفّظي لاستجلاء ذلك.

التخاطب وقوانين المحادثة:

إنّ من أولى الإسهامات التي سعت إلى ضبط قوانين المحادثة في المجال التداوليّ هي محاولة الفيلسوف اللغويّ "بول غرايس" الذي صاغ "مبدأ التعاون the cooperative principle"، ويقصد بمبدأ التعاون هو ذلك المبدأ الذي يرتكز عليه المرسِل للتعبير عن قصده مع ضمان قدرة المرسَل إليه على تفسيره وفهمه، وصاغه على النحو الآتي: "

ليكن إسهامك في الحوار بالقدر الذي يتطلبه سياق الحوار، أي بما يتوافق مع الغرض بينكما (موضوع الحديث)"، ويرتكز هذا المبدأ على أربع قواعد رئيسة [٤]، نوجزها بالآتي:

- قاعدة الكم quantity: وتعني، ليكن كلامك مشتملًا على الحد المطلوب من المعلومات، ولا يفوقه.
- قاعدة النوع quality: أي لا تقل ما تعتقد كذبه، أو ما تحتاج إلى البرهنة على صحته (قل ما أنت متأكد من معرفته فقط).
- قاعدة الكيف manner: كن واضحًا (تجنّب الإبهام والغموض- تجنّب اللبس- أوجز الكلام-كن منظّمًا).
- قاعدة العلاقة أو المناسبة(relation): أي، تحدث بما له علاقة وثيقة بالموضوع[٥].

ومع أنّ هذا الإسهام كان محاولة فاعلة في مجال تحليل الخطاب، بيد أنّه لم يسلم من النقد والتعديل[٦]، ولذلك توالت المحاولاتُ اللاحقة لاقتراح تعديلاتٍ على تلك القوانين، واستدراك نقصها بغية الوصول إلى أفضل النتائج المرجوة لتحليل الخطاب، واستمرار العملية التواصليّة، وفيما يأتي بيان لأنموذجين آخرين أردفا محاولة بول غرايس هما:

أولًا: "قواعد تهذيب الخطاب":

نظرًا لأهمية العملية التخاطبية بين المتحاورين، وأثرها في إنجاح التواصل اجتهد بعض الباحثين بالبحث، والتنقيب لضبط شروط العملية التواصلية بما يضمن استمرارها، ويزيد من تأثير الخطاب، ومن أبرز المهتمين بهذا المجال الباحثة الأمريكية(روبين لاكوف) التي حاولت صياغة مبدإٍ خطابيّ لتهذيب الخطاب في مقالها "منطق التأدب"، وقد علّقت فيه على قوانين غرايس في المحادثة؛ لأنها ترى أنّ الاكتفاء بمعرفة القالب اللغويّ للكلام ليس كافيًا للحكم على صحةِ ملفوظ معيّن، لأنّه قد لا يفضي إلى تفسير مقبول لبعض الملفوظات؛ لذلك لابدّ من الاهتمام بسياق التلفّظ بما

يشتمل عليه من مقاصد تداولية تسهم في تيسير عملية فهم رسالة الخطاب، وقد فرّعت ذلك المبدأ على ثلاث قواعد(٧).

١- قاعدة " **التعفف**": ومفادُ هذه القاعدة هو أن لا تفرضَ نفسكَ على الطرف الآخر، بل ينبغي البقاء متحفّظًا، وعدم التطفّل على شؤون الآخرين، ومقتضى هذه القاعدة هو تجنّب الإلحاح، أو إكراه المخاطب على فعلٍ معين، ويتحقق ذلك باستعمال أسلوبٍ خطابيّ يُبقي على المسافة بين طرفي الخطاب؛ وذلك بالابتعاد عن استعمال الطلب المباشر، وعدم التطفّل على شؤون المخاطب الخاصة، إلا بعد استعمال عبارات الاستئذان اللائقة، كأن تكون: من فضلك أو معذرة، أو لو سمحت....

٢- قاعدة "**التخيير**" أي، أن تجعلَ في خطابك دائما الخيار مفتوحًا للمخاطَب في اتخاذ قراراته، أي، اترك الخيار أمامه مفتوحًا، وهذه القاعدة شديدة الارتباط بقاعدة (التعفف)، ومفادها أن تتلفّظ بأساليب تدل على تخيير المخاطب في اختيار ردة الفعل التي يراها مناسبة، كـ(ما رأيك؟، ماذا تقول لو...؟)، أو استعمال أساليب الشك والظن بدلًا من استعمال الجزم والقطع في الكلام(٨)، وذلك نحو: (أظنّ، أتوقع، أحسب، يبدو...).

مثالها: ما رأيك في الخروج للنزهة؟

أو: أتوقع أنّ الجوّ مناسب للخروج في نزهة.

٣- قاعدة "**التودد**": وينبغي بموجب هذه القاعدة إظهار المتكلم الودّ للمخاطَب، بوصفه علامةً على تأدّبه معه، ورغبته في إنشاء علاقة معه لديمومة التواصل بينهما، وهو ما سيجعل المخاطب بدوره يشعر بالرّضا والطمأنينة لإحساسه بقربه من المتكلم، من ذلك مناداة الشخص باسمه مباشرة من دون حرف النداء(٩) مثلًا:

محمّد، عتبتُ عليك لعدم زيارتك لي...

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ توافر "التودّد" يصبح ضرورة حينما يتوجّه إلى الأعلى مقامًا من المتكلم؛ لأنّه يصبح شرطًا خطابيًا للتعامل الأخلاقي بين الطرفين، ويؤكد الحفاظَ على

التفاوت المقامي بينهما.

ثانيًا: قوانين التخاطب في الخطاب المثاليّ

اقترح اللساني الفرنسيّ "أوزوالدديكرو" عدداً من القوانين التي ينبغي مراعاتها في الكلام منها، ولابدّ من الإشارة إلى أنّ هذه القوانين قريبة من حيث المفهوم من قوانين المحادثة لدى غرايس، والأمر الآخر هو أنّ كلامنا قد يتوافر على أغلب هذه القوانين من غير أن نتقصّد ذلك، إلّا أنّ المتكلم قد يضطر لخرقها، وقد تنتج عن ذلك الخرق مضمراتٌ قوليّة، واستلزاماتٌ حواريّة معينة يُسهم السياق التداوليّ للتلفظ في استجلاء مقاصدها، وهذه القوانين هي[١٠]:

- قانون الإخبارية: وهو شرط يخضع له كلّ كلام يكون الهدف منه إخبار المخاطب، ولا يتحقق هذا المعنى إلا إذا كان المخاطب ليس عالمًا بما يخبره عنه المخاطب؛ أو يعلم عكسه، ولذلك على المتكلم أن يتحدث بما لا يعرفه المخاطب؛ لئلا يكون أمام ردة فعلٍ محرجة، من قبيل: أعرف ذلك...أو: لم تخبرني بشيء جديد...
- قانون الشمول: ومفاده أن يعطيَ المتكلم المعلوماتِ الأكثر إفادة عن الموضوع الذي يتحدث عنه، والتي من شأنها أن تهمّ المخاطبَ، ويُخرق هذا القانون بإحدى طريقتين؛ أمّا بالصمت، وأمّا بإخفاء بعض المعلومات في كلامه.
- قانون الصدق: ويتمثل في قول المتكلم الحقيقة كما هي موجودة، أو كما يدركها في الواقع.
- قانون الإفادة: وهو يلزم المتكلم بأن يقدم ما يفيد المخاطَب، أي يعتقد أنّه من الممكن أن يهمه الكلام فيه.
- قانون التلطيف: وهو أن يقول المتكلم قولًا ولا يصرّح بما يقصده بصورة كليّة ومباشرة، مثال قولك لشخص: (هذا الكتاب قليل الفائدة)، وأنت تقصد في الحقيقة أنّه غير مفيد إلا أنّك لا تريد قول ذلك مباشرة.

ومن اللافت للنظر هو أنّ هذه القوانين قد أغفلت الإشارة الصريحة إلى قانون مهم لاستمرار التواصل ونجاحه، وهي إتقان الإنصات المهذب القائم على عدم مقاطعة

المتكلم في أثناء حديثه- إلّا لموضع ضرورة- ولاسيّما الخطاب الموجّه لمن هو أعلى مقامًا من المتكلم.

وبعد هذا العرض الموجز نأخذ بعض الأمثلة الحواريّة التطبيقيّة من الخطاب القرآنيّ التي تُستشفُّ من لغتها، وأساليب خطابها تهذيبيةَ الخطاب المثاليّ من عدمها، من ذلك حوار النبي موسى مع العبد الصالح: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾[١١].

إذا كان فنّ الكلام يبدأ بإتقان فنّ السؤال، وليس تعلم فنّ الإجابة وإتقانها فحسب[١٢]، ففي صياغة النبيّ موسى لحوارِه مع العبد الصالح خيرُ دليل على ذلك؛ إذ يبد خطابه بأسلوب الطلب غير المباشر: (هل اتبعك...)؟ ولم يقل: سأتبعك؛ لئلا يكونَ قرار الاتباع من نفسه، فيبدو كأنّه يُلزم المخاطَب بهذا الأمر، وكذا لم يقل: علّمني... بصيغة الأمر؛ فيُوصف عندها آمرًا لا طالبًا، بل استعمل الاستفهام المجازي؛ ليكون بذلك متعففا بسؤاله، وغير مُلحٍّ على الطرف الآخر بطلبه، بل ترك له باستعمال هذا الأسلوب مساحة للرفض إن شاء ذلك، أمّا قاعدة "التودد" فهي وإن كانت ظاهرة بصورة واضحة باستعماله لأسلوب الطلب غير المباشر، إلا أنّها تتجلى أكثر بوجود لفظة(اتّبعك) التي أظهرت-بحكم معيّناتها الخطابية التي وسمت فعل الاتّباع-النبيّ موسى بمظهر المتعلم(التابع)، والعبد الصالح بمظهر المعلّم (المتبوع)، بيد أنّه في الوقت نفسه نبّه على جهة العلم الأصل بقوله: (عُلّمتَ) بالمبني للمجهول، أي لم يقل: (من علمك...أو مما تعلمت)؛ وذلك للتدليل على مصدر العلم الحقّ المتمثل بالذات المقدسة.

أما جواب العبد الصالح فقد كان مؤدبًا أيضًا؛ إذ إنّه التمس لموسى العذر في عدم استطاعته على الصبر فقال له: (إنّك لن تسطيع معيَ صبرًا وكيف تستطيع أن تصبر على مالم تُحط به خُبرا)، فهو لم يقل له: لن تتبعني، وإنّما قال لن تستطيع الصبر؛ تنبيهًا له على أنّ ما سيراه قد يكون تصرفًا غير مألوف للنبي موسى، وزيادة في التأدب أتمّ العبد الصالح ملفوظَهُ بما يلتمس فيه العذر للنبي موسى في حال عدم استطاعته الصبر، بقوله: (وكيفَ تستطيع أن تصبر على مالم تُحط به خبرًا) باستفهام مجازي، مبتعدًا عن المباشرة،

فلم يقل: لأنك لا تفهم ذلك، أو لأنك لا تعلم، على أنّ هذا الأسلوب قد أفاد غاياتٍ منها؛ أنّه قلّل من نسبة عدم العلم للنبي موسى بتلطيف الأسلوب، والأمر الآخر كان تنبيهًا مقدمًا له على أنّ ما سيراه مخالفٌ للعادة، ومنها أيضًا تحفيزه على الصبر، وتشويقه أيضًا....

ومن الشخصيات الحواريّة المهذّبة في الخطاب، النبيّ زكريا في مناجاته لربه: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[١٣]، فقد يبدو للوهلة الأولى أنّ خطاب النبي زكريا قد خرق قانون الإخبارية، وإن كان موفيًا ببقية القوانين كالصدق والشمول والإفادة؛ لأنه تكلّم مع مخاطب عالمٍ بحاله وبما هو عليه، بيد أن هذا الخرق لمبدأ الإخبارية قد جاء للإيفاء بقواعد الخطاب المهذّب من جهة، وللاستعطاف من جهة أخرى، فهو وصف خضوعٍ، وتذلّل لا للتعريف[١٤]، ، فقدّم الحجج أولًا وهي (وهن العظم واشتعال الرأس بالشيب، وعدم الشقاء -أي الخيبة - في الرجاء- وخوف المولي...)؛ ليسوّغ بذلك المبادرة بطلبه وهو النتيجة (فهب لي من لدنك وليًا)، وفي هذا الطلب المصرّح به هناك مؤشر لغويّ آخر يُفصح عن أدب الخِطاب، وهو قوله: (لدنك)، فهذه المفردة تتصل بمعيّن خطاب(وهو الكاف) الذي يعود إلى الذات المقدسة، وفي ذلك اعتراف من المتكلم بفضل الجهة المانحة.

هذا وقد أنبأت وسائل لغويّة أُخَر عن خطاب النبيّ زكريّا المهذّب، من ذلك وصف طريقة الطلب بـ(نداءً خفيًّا)؛ فهو من دون شكّ يباين النداء بصوتٍ عالٍ؛ نظرًا لما يحمله النداء الخفيّ من صبغة التأدب، والخضوع والتقديس للمخاطَب، ولاسيّما أنّه موجّه إلى الأعلى مقامًا (الذات المقدسة)، على أنّ الدعاء الخفيّ أقرب إلى الإجابة[١٥]، ثم تتوالى في حوار النبيّ الصفات الدالّة على مظاهر التأدب في الخطاب، ولاسيّما "قاعدة التودد" من ذلك تكراره لـ(ربّ) في مجمل حواره (قالَ ربِّ إنّي...) وقوله: (ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًا)، وقوله: (واجعله ربِّ رضيًا....)، ولما كان خطاب المتكلّم خطابًا مثاليًا ناجحًا

كانت نتيجته قبول المخاطَب للدعاء والتبشير بإجابته للطلب: (يا زكريّا إنا نبشرك بغلام...).

ومن أبرز النماذج للحوار الملتزم بقاعدة "التخيير"، خطاب النبيّ إبراهيم لابنه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[١٦]، فصفة الحلم في الملفوظ (فبشرناه بغلام حليم) تتضمنُ تقويًا ايجابيًا للشخصية، ومع أنّ الأب هو الأعلى رتبة من الابن، وهو يعلم بضرورة الالتزام بالاختبار الإلهي بتنفيذ رؤيا الأنبياء، بيد أنّ التزامَ خطابه بقاعدتي التودد والتخيير كان واضحًا، فالتودد يتجلى باستعماله للنداء(يابنيّ) بما تحمله هذه الفظة من عاطفة الأبوة الصادقة، وأما التخيير فواضح من استعماله للاستفهام(فانظر ماذا ترى)؟، من دون استعمال الطلب المباشر، وقد كان خطاب الأبن لا يقل تهذيبًا عن خطاب والده؛ إذ أجابه بترك الخيار له لتنفيذ ما أُمر به: (يا أبتِ افعل ما تُؤمر) معلنًا لوالده بكامل أدبه عن امتثاله لذلك بقوله: (ستجدني إن شاء الله من الصابرين).

ومن أمثلة الخطاب المهذّب الملتزم بقاعدة "التخيير" أيضًا خطاب ملكة سبأ لقومها وردّهم عليها: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[١٧]. فلو تأملنا الملفوظ الموجّه من ملكة سبأ إلى قومها المتضمن شقين؛ الأول، الطلب: (أفتوني في أمري) والثاني، النفي(ماكنتُ قاطعة أمرًا حتى تشهدون)، فالأول طلب بإفتائها بشأن كتاب النبيّ سليمان الوارد إليها، فهي تروم إشراك قومها في اتّخاذ القرار مع أنّها تستطيع ممارسة حجاج السلطة بحكم رتبتها التي هي أعلى من رتبة المخاطبين، بيد أنّ خطابها اتخذ مظهرًا تخييريًا للمخاطبين كي تشعرهم بقربهم منها؛ مما له أثره في اتخاذ القرار المناسب، وقد أُردفت ملفوظ الطلب بملفوظ النفي تأكيدًا لأهمية سماع الرأي الآخر، ولّما بلغ خطابها الذروة في التهذيب مع صدوره عن ملكة، اتخذ قومها من قاعدة التخيير أيضًا مظهرًا يتجلى فيه "مبدأ التأدب" وهو قولهم: (نحن أولو قوة وأولو بأس شديد فانظري ماذا تأمرين)، بيد أن الشطر الأول من الملفوظ يوحي

بخرقهم بعض قوانين الخطاب كقانون الشمول أو الصدق؛ وذلك باستعمالهم لأسلوب التلميح في الجواب؛ حفاظًا منهم على مبادئ الخطاب المهذّب الذي التزمت به ملكتهم؛ إذ قالوا: (نحن أولوا قوة...)، ولم يصرّحوا بأنّهم يميلون إلى استعمال القوة مع سليمان عليه السلام، ثم تأتي تتمة الملفوظ لتبيّن التزامهم بقاعدة "التخيير" من قواعد التأدب، بقولهم: (فانظري ماذا تأمرين)، فبعد أن ألمحَ قومها إلى تفضيلهم القوة، تركوا لها اتخاذ القرار بكامل صلاحياته بإسناد الأمر إليها(انظري- تأمرين) كما يوضحه المعيّن الخطابي (ياء المخاطبة) المشمل عليه الملفوظ.

وإلى أنموذج آخر من الخطاب المهذّب: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [١٨]، فهذا الحوار يتصدره خطاب الذات المقدسة للملائكته بأنّه سبحانه سيجعل خليفة لهذه الأرض، وهنا يبادر الملائكة باستفهام غايته التعرف والاستعلام عن وجه الحكمة من ذلك(أتجعل فيها من يفسد فيها...)؟[١٩]، ويضمر قصدًا خفيًا وهو طلب الخلافة لهم، بيد أنّه مع ذلك لم يخرق حدود الخطاب المهذّب؛ فتذييله بملفوظ حاليّ(ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) قد هوّن من حدة الملفوظ الاستفهاميّ؛ لأنّه خطاب تهذيبي ذو شحنة تعظيمية، فالتسبيح والتقديس سمتان بارزتان لتبجيل المخاطَب، وقد أوضحته المعينات الخطابية المتمثلة بحرف الخطاب الدالّة عليه: (بحمدك) و(لك)، وحين أجابهم سبحانه بأنّه يعلم من المصالح في ذلك ما لا يعلمونها، ثمّ أخضعهم لاختبار معرفة الأسماء التي عُرضت عليهم، وعلى آدم، ولما عجزوا عن ذلك أردفوا خطابهم الأول بخطاب أعلى تهذيبًا، وتوقيرًا، للمخاطب، فقالوا: (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنّك أنت العليم الحكيم) فالمؤشرات اللغوية المستعملة في هذا الملفوظ أنبأت عن تأدبهم من جهة، وألمحَت إلى اعتذار مضمر من جهة أخرى، ومنها:

- التنزيه بالمصدر "سبحانك" الدالّ على التقديس، واستعمال المصادر بحكم طبيعتها الاسمية يضفي على الخطاب الثبات والدوام.

- نفي العلمية عنهم نفيًا مستغرقًا للجنس: (لا علم لنا)، وهي اعتراف ضمنيّ بانفراد الذات المقدسة بالعلم، ويعضده الاستثناء(إلا ما علمتنا)، فضلًا عن المعينات الخطابية (تاء المخاطب- نا المتكلمين) التي حدّدت العالم من المتعلم.
- شحن الملفوظ بصفات التقويم الإيجابيّ، وهما(العليم الحكيم) اللتان أعقبتا (إنّك وأنت)، وهي حتمًا تسند حجاجيًا قصد المتكلمين من الاعتراف بأحقية المخاطب، فضلًا عما تحمله من صبغة التهذيب المتأتية من أنّها صفات مدح وثناء.

أمّا الشخصيّة الفاشلة في التواصل لخرقها تهذيبيّة الخطاب، فتتجلى في حوار إبليس مع الذات المقدّسة، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢٠).

إنّ سبب فشل شخصية إبليس في الحوار هو فقدان جوابه لأدبيّات الخطاب؛ إذ ينبغي مراعاة مقام السائل(الآمر)الذي هو أعلى رتبة من المسؤول كأن يستعمل في خطابه عباراتٍ تدلّ على الإجلال، والتودد، والأدب، كـ(سيدي أو ربّي أو مولاي...)، بيد أنّه باشرَ جوابه بـ(أنا) الدالّة على تعالي الذات، وهو خطأٌ فادحٌ؛ لعدم تساوي رتبة السائل مع المسؤول، والأمر الآخر الذي خرج به عن حدّ التهذيب بالكلام، هو استعماله لأسلوب التفضيل (خيرٌ منه)، الذي أفصح عن لهجة التكبّر في شخصية إبليس، فضلًا عن استصغاره لشأن المتحدث عنه باستعماله لهاء الغائب(منه - خلقته) ولم يقل: من آدم، وخلقت آدم...وقد ترتب على ذلك فشل الحوار الذي انتهى بغضب الذات المقدسة عليه وقراره بطرده من الجنة، وبدلًا من أن يطلب إبليس المعذرة والاستغفار من الله تعالى لعصيانه أمره، يطلب الإمهال(أنظرني إلى يوم يبعثون)، بيد أنّ غاية الإمهال تلك لم تكن للتوبة التي تليق بذلك الموقف، بل للانتقام وزيادة التمرّد، ولا خطاب أكثر وقاحة وفقدانًا للأدب من استعماله للقسم في حضرة الذات المقدسة على إغواء بني آدم انتقامًا

لخروجه من الجنّة بقوله: (لأقعدنّ لهم...لأتينّهم من بين أيديهم...)، وقد قوبل هذا الخطاب الخارق لحدود التأدب بخطاب الذمّ والوعيد العظيمين: (اخرج منها مذمومًا مدحورًا) و(لأملأنّ جهنّم منكم أجمعين)، وهو خطاب تهديديّ يعدّ متحققَ الوقوع إنجازًا؛ نظرًا لصدوره من صاحب السلطة والقدرة المطلقة، وتأسيسًا عليه كانت شخصية إبليس أنموذجًا للشخصية الفاشلة في الحوار؛ لفقدانها الالتزام بفنّ تهذيب الخطاب ومبدأ التأدب.

ومن النماذج الأُخر التي خرق المتكلمون فيها بعض قواعد تهذيب الخطاب، حواريّة موسى مع قومه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[٢١]، فلو تأملنا هذه الحواريّة التي تجسد خطابًا منقولًا لموسى "عليه السلام" بأمر الله لقومه بأن يذبحوا بقرة، وهو حوار متناوب الحوار بتبادل الأدوار الكلامية، وما يهمنا في هذا المقام هو الحوار الخاصّ بقوم موسى، فقد أفصحت الوسائل اللغوية والمؤشرات الخطابية التي وسمت خطاب المتكلمين عن أبرز خروقات قواعد التهذيب، وتُجمَل بالآتي:

- افتقار المتكلمين لفنّ اللياقة الخطابية بعدم توقير مقام المخاطَب الأعلى منهم رتبة بعبارات التبجيل والاحترام، بل اتهامه بالاستهزاء تصريًا والجهل تلويحًا؛ وذلك باستعمال الاستفهام الاستنكاري مباشرة(أتتخذنا هزوا)؟[٢٢]، والدليل على هذا القصد المضمر جواب النبيّ موسى عن سؤالهم بقوله: (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)؛ لأن الهزء بالآخر من صفات الجاهل[٢٣].

- من الوسائل الأخَر التي خرقت قاعدة التعفف، تكرار الطلب بقولهم: (ادع لنا ربك يبين لنا ماهي) و(ادع لنا ربّك لنا يبين ما لونها) و(ادع لنا ربك يبين لنا ماهي إن البقر تشابه علينا)؛ إذ يستطيع القارئ أن يستشعر الالحاح المفرط بالطلب من قوم

موسى، وقد عضده قول الذات المقدسة: (فذبحوها وما كادوا يفعلون)، فالملفوظ(وما كادوا)، يعني أنّهم كانوا مقصّرين في الامتثال للأمر حتى بعد البيان التام[٢٤].

- إنّ قوم موسى قد خرقوا أمرًا مهمًا من حقوق اللسان؛ لأنّ كثرة الإلحاح بالسؤال أظهرت المتكلمين بمظهر فضوليّ سَمِج، وهو ما لا تؤمن عاقبته السلبية، كما بيّنه هذا الملفوظ من قول الإمام: (وإعفاؤه عن الفضول الشنعة القليلة الفائدة التي لا يؤمن ضررها مع قلة عائدتها)، وهو ما انطبق فعلًا على قوم موسى، فهذا الإلحاح الزائد في الكلام غير المفيد لم يجلب لهم أية فائدة، فضلًا عن أنه قد ألحق الضرر بهم؛ إذ كانت نتيجته أنّ شدّد الله عليهم في طلب مواصفات محددة، ونادرة لتلك البقرة المأمورِ ذبحُها.

النتائج:

- إنّ قوانين الخطاب المؤدّب، والمثاليّ التي اهتم بها الدرس التداوليّ لم تكن بِدعًا لتراثنا العربي، بل هي في الأساس من وصايا التراث العربيّ التي كان يُحَثّ على الالتزام بها، واقتفائها في الخطاب، وهو أمر ليس بغريب عن أمة كانت فصاحة الحديث وبلاغة الكلام، وأناقة الأسلوب هي جلّ اهتمامها.
- إنّ قوانين الخطاب في الدرس الحديث لم تُشر إشارة صريحة إلى قانون "عدم المقاطعة" في الاستماع الذي يسهم إسهامًا فاعلًا في عملية استمرار التواصل بين الطرفين ويعضد نجاح الحوار.
- اتضح من البحث أنّ لغة الكتاب الكريم تتجلى فيها مظاهر خطابية متعددة تكشف عن التودد، أو التعفف، أو التخيير، وخروقاتها؛ فهي لغة ثرّة تتنوّع في ألفاظها، وعباراتها، وتتلون في أساليبها، وهو ما كشفت عنه لغة حوار الشخصيات في الخطاب القرآني.
- قد كشف البحث عن وجود مظاهر متنوعة لتهذيبيّة الخطاب لدى الشخصيات القرآنية، كاستعمال المعينات الخطابية التي تعضد أهمية المخاطَب، واستعمال

أسلوب التلميح بوصفه مظهراً تهذيبياً يقلل من حدة المباشرة، وغير ذلك مما أفصحت عنه لغة الحوار في النماذج المختارة، وفي المقابل ظهرت معوقات تسببت في خرق "مبدأ التأدب"، وأعاقت نجاح العملية التواصلية.

- إنَ الخطاب القرآني غالبًا ما يورد ملفوظًا يشتمل على صفاتٍ تحملُ تقويمًا إيجابيًا أو سلبيًا للشخصية الحواريّة، وهي التي تسهم في بيان التزام تلك الشخصية بمبدأ التأدب الخطابيّ من عدمه.
- إن أسلوب التكرار في السؤال كان مظهراً لغويًا لخرق قاعدة التعفف في السؤال؛ لأنه أظهر المتكلم بمظهر الإلحاح، وهو الأمر الذي تدعو قوانين تهذيب الخطاب لتجنبه بغية الحصول على التواصل الناجح، بيد أنّ التكرار في الوصف المدحيّ للمخاطب اتخذ مظهراً مغايراً لما سبق؛ إذ إنّه أسهم في نجاح التواصل لشحنه الملفوظ بشحنة التأدب الخطابيّ.
- في بعض الأحيان يكون خرق أحد قوانين الخطاب المثاليّ متأتيًا من التزام المخاطب بقواعد تهذيب الخطاب ومبدأ التأدب؛ ولذلك فهو لا يؤثر في نجاح الحوار واستمرار التواصل، على حين أنّ خرق إحدى قواعد تهذيب الخطاب يعدّ أحد أبرز أسباب فشل الحوار.

هوامش البحث

(١) استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري: ١٨٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٦٢.

(٣) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي: ١١/٧١.

(٤) ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلار وآن ريبول: ٢١٤- ٢١٥.

(٥) ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية: ٢١٥.

(٦) يراجع كتاب "نظرية الصلة أو المناسبة" التواصل والإدراك، دان سبربر وولسون، ترجمة: هشام خليفة: ٢٧٩-٢٨١.

(٧) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٩٧- ١٠٠.
(٨) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٩٧- ١٠١.
(٩) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٢.
(١٠) ينظر: القاموس الموسوعي التداولية: ٢٣٣- ٢٣٦، والتداولية وتحليل الخطاب" نحو تحليل جديد لجنس المقامة في الأدب العربي"، د. محمود طلحة: ٢٢٤.
(١١) الكهف: الآيات (٦٦- ٦٩).
(١٢) ينظر: فن الكلام وأصول الحوار الناجح، د. إيهاب فكري: ١٦
(١٣) مريم: الآيات (٢- ٦).
(١٤) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي: ٦/ ٥٠٢.
(١٥) ينظر: المصدر نفسه: ٦/ ٥٠٢.
(١٦) الصافات: الآيات (١٠٠- ١٠٢).
(١٧) النمل: الآيات (٢٩-٣٣).
(١٨) البقرة: الآيات (٣٠- ٣٢).
(١٩) ينظر: مجمع البيان: ١/ ٧٤.
(٢٠) الأعراف: الآيات (١٢- ١٨).
(٢١) البقرة: الآيات(٦٧- ٧١).
(٢٢) ينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش: ١/ ١١٩.
(٢٣) ينظر: مجمع البيان: ١/ ١٣٤.
(٢٤) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ١٣٥.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير ما نبتديء به القرآن الكريم

- استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية): عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٤ م.
- إعراب القرآن الكريم وبيانه: الأستاذ محيي الدين الدرويش، دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط٧، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩ م.
- بحار الأنوار: محمد باقر المجلسيّ (ت١١١٠ هـ.ق)، مطبعة مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان، ١٤٠٤ هـ.ق .

- التداولية وتحليل الخطاب" نحو تحليل جديد لجنس المقامة في الأدب العربي" من ضمن سلسلة بحوث (التداوليات وتحليل الخطاب)، إشراف الدكتور حافظ إسماعيلي علوي، الدكتور منتصر أمين عبد الرحيم، دار كنوز المعرفة، عمان – الأردن، ط١، ١٤٣٥هـ -٢٠١٤م.
- فنّ الكلام وأصول الحوار الناجح: الدكتور إيهاب فكري، مطبعة دوّن للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٠م.
- القاموس الموسوعي للتداولية: جاك موشلار وآن ريبول، إشراف: عز الدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠١٠م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسيّ(ت٥٤٨هـ)، تح: هاشم الرسوليّ المحلاتي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت – لبنان، ط١، ١٣٧٩ هـ ق، ١٣٣٩هـ ش.
- "نظرية الصلة أو المناسبة" التواصل والإدراك، دان سبربر وولسون، ترجمة: هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت– لبنان، ط١، ٢٠١٦م